لا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب

٣٠ يقول ربُّ العزّة سبحانه فى الحديث القُدْسى:

« إنَّا أَنْزلْنَا المالَ لإقَامِ الصَّلاةِ وَإيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَلَوْ كانَ لابْنِ آدَمَ وَادٍ لأَحَبَّ أنْ يكونَ إليه ثَانٍ، وَلَوْ كانَ لَهُ وَادِيَانِ لأَحبَّ أنْ يكُونَ إليهما ثَالِثٌ، ولاَ يملأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إلاَّ التُّرابُ، ثُمَّ يَتُوب اللهُ علَى مَنْ تَابَ» (١)

ما هو المال؟

إن المال هو كل ما يتمول، إلا أننا نصرفه إلى شىء يمكن أن يأتى بكل مُتمول، وأسميناه بالنقد، وأصبحتْ له الغلبة، لأننا نشترى بالنقد كل شىء، لكن المعنى الأصلى للمال هو كل ما يتمول.

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/ ٢١٨) وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٧/ ١٤٠) وعزاه لأحمد والطبرانى. وقال الهيثمى: رجال أحمد رجال الصحيح. ونسبه العراقى فى تخريج الإحياء (٣/ ٢٣٢) لأحمد والبيهقى فى شعب الإيمان وصحح سنده.

وكيف يجيء المال لك ، أو لِى ، أو لأى إنسان؟

أخرجَ أحدٌ مِنّا من بطن أمه وهو يملك شيئًا؟

لا .. إن مَا يملكه لإنسان يأتى إما من متحرك فى الحياة قبلك ، إنْ كان والدك أو جدّك ، وإما من حركتك أنت.

والمتمول هو الذى يتحرك فى الحياة حركة قد تكون لنفسه ، وإن اتسعت حركته فستكون لأبنائه ، وإنْ اتسعت أكثر فستكون لأحفاده.

والحق سبحانه يُفرِّق بين مال يكتسبه الإنسان بجهده وكَدِّه وتَعبِه ، ومال آخر يرثه الإنسان.

يقول تعالى :

﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ (١) وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا (٢) وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة]

---

(١) العشيرة : جماعة الرجل الذين يعتز بهم ، قال تعالى : ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ {الشعراء} أى : قومك. {القاموس القويم ٢ / ٢٢}.

(٢) كسدت السلعة كساداً : بارت ولم تَرُج لقلة الرغبة فيها. قال تعالى : ﴿تِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا .. ﴿٢٤﴾﴾ {التوبة}

فاقتراف المال هو أَخْذها بجهد ومشقة وتعب، وهو غير المال الموروث الذى لم يتعب فيه صاحبه ، وإنما ورثه عن غيره ، وفى هذه الحالة يكون أمره هَيِّناً على صاحبه.

أما المال الذى كسبه الإنسان بعرق جبينه وكَدِّه ، فصاحبه أكثر حِرْصاً عليه من المال الموروث.

والحق سبحانه يقول :

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً (٤٦)﴾ [الكهف]

فهذه الأشياء زينةُ الحياة الدنيا.

ومعنى الزينة: الحُسْن غير الذاتى ، فهناك حُسْن ذاتىّ فى الجوهر ، مثل المرأة الجميلة بطبيعتها بدون مساحيق أو أصباغ أو حُلىّ ، لأن حُسْنها ذاتىّ.

ولذلك تُسمَّى المرأة الجميلة غانية ، لأنها استغنتْ بجمالها الذاتى فى جوهرها عن أنْ تتزينَ بأىّ شىء .

يقول تعالى:

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ[1] وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤)﴾ [آل عمران]

(١) الخيل المسومة المرسلة وعليها ركبانها. وهى أيضًا التى عليها السُّومة ، وهى العلامة. [لسان العرب ـ مادة : سوم].

فهو سبحانه يقول للناس : خذوا الحياة على قَدْرها.

وزُيِّن يعنى حسن. فمن الذى حَسَّنها؟ لقد حسَّنها الله عز وجل ، فكيف تنسى الذى حسَّنها لك ، وجعلها جميلة وجعلها تحت تصرُّفك؟

كان يجب أنْ تأخذها وسيلةً للإيمان بمن رزقك إياها، وكلما ترى شيئًا جميلاً فى الوجود تقول «سبحان الله » وتزداد إيمانًا بالله ، أما أن تأخذ المسألة وتعزلها عمَّنْ خلَقها ، فذلك هو المقياس النازل.

أو : أن الله سبحانه وتعالى هو الذى زيَّنها بأنْ جعل فى الناس غرائز تميل إلى ما تعطيه فى هذه الحياة الدنيا ، ونقول : هل أعطى سبحانه الغرائز ولم يُعْطِ منهجًا لتعلية هذه الغرائز؟

لا ، لقد أعطى الغرائز ، وأعطى المنهج لتعلية الغرائز ، فلا تأخذ هذه وتترك تلك.

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً ﴿٤٦﴾﴾ [الكهف]

وعندما نتأمل الآية فى مجموعها نجد أن مفاتيح كل شخصية تريد أنْ تنحرفَ عن منهج الله تجذب الإنسانَ لينحرفَ عن مُرادِ الله فى منهجه ، إنه سبحانه يطلب من عبده المؤمن أنْ يبنى حركة حياته على مراد الله ، فما الذى يجعل المؤمن يترك مراد الله من حكم لينصرف إلى حُكْم يناقضه؟

لا شكَّ أنه الهوى ، والهوى هو الذى يُميل ويُزيغ القلوب ، ولكل هوى مفتاحه ، ولكل شخصية من المكلفين بمنهج الله مفتاح لهواه ، فواحد مفتاحه النساء ، وواحد مفتاحه البنون ، يحب أن يرعاهم رعاية تفوق دَخْله من عمل أو صناعة مثلاً ، فقد يسرق أو يرتشى ليسعد هؤلاء.

وأناس مفاتيحهم الشخصية فى المال ، أو فى زينة الخيل ، والعُدَّة والعتاد ، فلكل شخصية مفتاح هوى.

والذين يدخلون على الناس لِيُزيِّنوا لهم غير منهج الله يأتون لهم بالمفتاح الذى يفتح شخصياتهم ، فربما كان هناك إنسان لا تُغريه نظرة المرأة أو ملايين الذهب، إنما يتملكه حُبُّه لأولاده ، وهو الهوى الغَلاَّب.

وهناك مَنْ يمتلكه حُبُّ المال ، حتى إنه إذا كان يملك منه قنطاراً فإنه يطمع فى الزيادة ، مثلما يطمع مَنْ يملك ألف جنيه فى أن يزيد ما يمتلكه ويصل إلى مليون جنيه.

لذلك قال سبحانه :

﴿ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ .. ﴿١٤﴾ ﴾ [آل عمران]

فالقناطير المقنطرة تعنى الرغبةَ فى المبالغة فى الغِنَى.

ورسول الله ﷺ يقول :

«لو أن ابن آدم أُعطِى وادياً مـلآن من ذهب أحبّ إليه ثانـيًا، ولو أعطى ثانيًا أحبّ إليه ثالثاً » (١)

أى : أن الإنسان الذى امتلك واديين يريد أن يحتـفظ بالواديين كما هما، ويطمع فى امتلاك الوادى الثالث ، رغم أنه قد لا يعيش لينفق مقدار وادٍ واحد.

فالإنسان بطـبعه لا يحب القليل من النعم بل يطلب الكثـير ، لماذا؟ لأن كثيراً من الناس ينسوْنَ الآخرة ، ويعتقدون أن هذه الحياة الدنيا هى كل شىء.

ولهذا تجد الإنسان منهم يريد أنْ يحتاطَ لنفـسه ، فإذا أخذ ما يكفيه يريد أنْ يحتاطَ لأولاده ، فإذا كان عنده ما يكفيه هو وأولاده يريد أنْ يحتاطَ لأحفاده.

ولكن المـؤمن الحق هو مَنْ يعـرف أن الحيـاة الدنيـا طريق العبـور إلى الآخرة ، وأنها رحلة قصـيرة تنتهى ، فلا يهتم بهذا اللـون من الاحتياط ، ولكن الذى يحرص على عملية الاحتيـاط هذه هو مَنْ يظن أن الحياة الدنيا هى الغاية من الخَلْق ، ولا يتنبه إلى أنها وسيلة للآخرة.

إننا نجـد أولئك الذين يسرفـون على أنفسـهم ويتبـعون شهـواتهم وهم يحاولون أن يأخذوا من الدنيا كل شىء يمكن أنْ تُعطـيه لهم حلالاً أو حرامًا ، وهذا واضح فى سلوكهم الدنيوى .

---

(١) أخرجه مـسلم فى صحيحـه (١٠٤٨) كتاب الزكاة من حـديث أنس بن مالك رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : «لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى وادياً ثالثاً ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب».

أما المؤمن فهو كالطالب الذى يجدُّ فى دروسه ، ويجتهد ويستيقظ مبكراً ويذهب إلى المدرسة ، ويظل ساهراً ليذاكر ويحرم نفسه من مُتَع كثيرة ، لأنه بفطنته وذكائه يعرف أن هذا حرمانٌ مُؤقَّت.

وهو إنما يفعل ذلك لفترة قصيرة ليستريح بقية العمر ، ويحصل على المركز المرموق والدَّخْل المرتفع إلى آخر ما يمكن أنْ يُعطيه له المستقبل.

أما المسرف على نفسه فهو كالطالب الذى لا يذهب إلى المدرسة ، ويقضى وقته فى اللعب والاستمتاع ، وهو بمثل هذا السلوك كان قصير النظر ، وأعطى لنفسه شهوةً عاجلة لِيظلَّ فى مُعاناةٍ بقية حياته.

إذنْ : فكُلٌّ من الطالبيْنِ أعطى نفسه ما تريد.

الأول : أعطى نفسه مُستقبلاً مريحاً مُمْتداً ، وصار قمةً من قِمَم المجتمع.

والثانى : أعطى نفسه متعة عاجلة زائلة ، ثم صار بعد سنوات قليلة صُعْلوكاً فى المجتمع لا يساوى شيئاً.

إذنْ : فإياك أنْ تنظرَ تحت أقدامك فقط ، لأن العالم لا ينتهى عند موقع وقوف قدميْك هاتينِ ، ولكنه مُمتدٌّ إلى آفاق بعيدة ، فإذا نظرتَ إلى هذه الآفاق فلا يليقُ بك أنْ تختارَ متعة وَقْتية قليلة.

ولننظر إلى قول الله سبحانه عن الأشياء المزيَّنة :

﴿ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ..(١٤) ﴾ [آل عمران]

أى : أن الذى ينظر إلى هذه الأشياء المزيَّنة نظرة تقليدية سطحية سيجدها مجردَ متاعٍ ، وما عمر هذا المتاع؟

إنه مَوْقوتٌ بالدنيا الفانية ، ولنُسلِّم جدلاً أن شيئاً لن يسلبك هذه الأشياء وأنت حىّ ، وأنها ستظلُّ معك طِيلَة دُنْياك ، فما قيمة الدنيا وهى مُقَاسَةٌ بآلاف السنين ، والإنسان لا يعيش فيها إلا قَدْراً مُحدَّداً من الأعوام يُقرِّره الحقُّ سبحانه وتعالى.

إذنْ : فالدنيا تُقَاسُ بعمر الإنسان فيها ، لا بعمر ذات الدنيا لغيره ، لأن عُمْر الدنيا لغيرك لا يخصُّك.

إن الدنيا محدودة ، ولا أحدَ يستطيع أنْ يستديمَ الدنيا ، لذلك فلن يستطيعَ أحدٌ أنْ يستديمَ الخير ؛ لأن عمره فى الدنيا محدود.

والإنسان قد يبحث فى عُمْر الدنيا ويقول : إنها تستمر عشرة ملايين من السنين ، أو مائة مليون سنة ، وقد لا يلتفت إلى أن عمره هو موقوتٌ فى هذه الدنيا.

إذنْ : فالدنيا بالنسبة لك هى مقدار عُمرك فيها ، لا مقدار عمرها الحقيقى إلى أنْ تقوم الساعة ، وماذا تستفيد منها وهى تطول لغيرك ؟

إن عُـمر الدنيـا بالنسبـة للإنسـان هو مقـدار مُكْث الإنسان فـيهـا ، وهو مظنونٌ وغيرُ مُتيقن ، وقـد يموت وهو فى بطن أمه ، أو يموت وهو ابنُ شهر ، أو ابنُ سنة ، أو بعد أنْ يبلغَ المائة.

فالذى يرضى بغير المتقين قصيرُ النظر.

ولذلك انظر إلى القرآن وهو يقول :

﴿أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ﴿٣٨﴾﴾ [التوبة]

وحتى إنْ قِسْتَ عـمر الدنيا من بَدْء الخلق إلى أنْ تقوم السـاعة فهى إلى فناء ، وما دامتْ إلى فنـاء فهى متـاع قليل ، ومَنْ يطمئن إلى هذا المـتاع القليل فهو غافل.

وعلى الإنسان أنْ يعلم أنَّ الحق سـبحانه لم يتـرك الإنسان على الأرض دون أنْ يُوفِّر له وسائل استمرار حياته ، فالمطر ينزل من السماء ، والسماء هى كل مَا علاكَ فأظلّك ، فينبت به الزرع والثمر ، وهذا رِزْق لنَا.

والناس تختلف فى مسألة الرزق ، والـرزق هو ما يُنتفع به ، وليس هو ما تحصل عليه ، فقد تربح مالاً وافراً ، ولكنك لا تنفقه ولا تستفيد منه ، فلا يكون هذا رزقك ، ولكنه رِزْق غـيرك ، وأنت تظل حـارساً عليـه ، لا تنفق منه قـرشاً واحداً ، حتى توصله إلى صاحبه.

والرزق فى نظر معظم الناس هو المال.

قال ﷺ : «**يقول ابن آدم: مالى مالى .. وهل لك يا بنَ آدم من مالك إلا ما أكلتَ فأفنيتَ ، ولبستَ فأبليتَ ، أو تصدَّقْتَ فأمضيتَ**» (١) .

هذا هو رِزْق المال ، وهو جزء من الرزق ، ولكن هناك رزق الصحة ، ورِزقْ الولد ، ورِزْق فى الطعام ، ورزق فى البركة .

وكل نعمة من الله سبحانه وتعالى هى رِزْق ، وليس المال وحده ، وإنْ كان الإنسان يحتاج إلى المال ليحصل على ضروريات الحياة وكمالياتها فيطمئن إلى حاضره ومستقبله.

لكن لنفرض أن المال دامَ لك طُولَ العمر ، وأنت تعرف أن العمر مهما طالَ قصير ، ولا بُدَّ أنْ يأتى يوم تفارق فيه هذا المال بالموت.

فى هذه اللحظة يكون ما كنزتَ من المال قد صار إلى ورثتك ، ولا يصحبك منه إلى آخرتك إلا ما أنفقتَ فى سبيل الله. أى : أن ما أنفقتَ هو ما يبقى لك فى عالم الخلود ، لا يفارقك ولا تفارقه.

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٩٥٨) من حديث عبدالله بن الشخير. وتمامه « أنه أتى النبى ﷺ وهو يقرأ ﴿ألهاكم التكاثر﴾ » الحديث.

إذنْ : فالذى يُحِبّ ماله عليه أنْ يصحبَ معه هذا المال لمدة أطول ، وأنْ يتعدّى بـه مجرد الوجود فى الدنيـا ، وأنْ يصل به إلى دار الخلود ، ومَنْ يعشق المال ـ إذا أراد أنْ يُبقيه ـ فلينفقه فى الصدقة.

ولنَا الأُسْوة الحسنة فى رسول الله ﷺ حين جـاءتْه شاة كهدية، فـقال للسيدة عائشة رضي الله عنها : «تصدَّقى بلحمها».

وكانت السيـدة عائشة ـ رضوان الله عليهـا ـ تعرف أن رسول الله ﷺ يحب لحم الكتف ، فتصدقتْ بلحم الشاة كلها ، وأبقتْ قطعة من لحم الكتف لرسـول الله ﷺ . وعندما عـاد رسول الله ﷺ سـألهـا: ماذا فـعلت بلحـم الشاة ؟ قالت: تصـدقت بها كلها وأبقيت كتفـها. فقال : «**بل قولى أبقيتها كلها إلا كتفها**» (١)

وذلك لأن مَا تصدقتْ به السـيدة عائشة رضي الله عنها هو الباقى ، وما أبقـته لهما هو الذى سيفنى ، وهكذا سَمَّى رسول الله ﷺ الأشياء بحقيقة مُسمَّياتها.

فالذى يحب صُحْبَة ماله فى الدنيا والآخرة عليه أنْ يُقدِّم بعضاً منه صدقةً للفقير والمحتاج ، لِيُبارك الله له فى الدنيا ، ويجزيه خَيْرَ الثواب فى الآخرة.

وقد سأل رجلٌ الإمامَ علياً رضي الله عنه : أريد أنْ أعرفَ : هل أنا من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة ؟

---

(١) حديث صحيح. أخرجه أحمد فى مسنده (٦ / ٥٠) والترمذى (٢٤٧٠) وقال : هذا حديث صحيح. وأخرجه أبو نعيم فى الحلية (٥ / ٢٣) عن عائشة رضي الله عنها .

قال الإمام علىٌّ كرَّم الله وجهه :

الجـواب عـندك أنت ، لا عنـدى ، انظر إذا دخل علـيك مَنْ يعـطيك ، ودخل عليك مَنْ يطلب منك ، أيهما تُرحِّب به وتقابله ببشاشة ، أيهما تحب؟

إنْ كنتَ تحبُّ مَنْ يأخـذ منك فـأنت من أهل الآخـرة ، وإنْ كنتَ تحب مَنْ يعطيك فـأنت من أهـل الدنيـا ، لأن مَنْ يأخـذ منك يحـمل حـسناتك إلى الآخرة ، وأما مَنْ يعطيك فيزيدك من الدنيا ولا يعطى آخرتك شيئاً.

ونقول للذى يحب المـال : اجعل حُبَّك للمـال يُبقيه لك فـترة أطول من عمر الدنيا ، فالدنيـا ليست هى المقياس ، ودنياك قَدْر عمرك فـيها ، أما الآخرة فأنت خالدٌ فيها ، فتصدَّق ببعض مالك يكُنْ لك خيراً فى الآخرة.

ويلفـتنا القـرآن الكريم إلى المنـظور ، وإلى المـدخور ، فـيـقـول الحق سبحانه :

﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا (٤٦) ﴾ [الكهف]

ويقول سبحانه فى آية أخرى :

﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا (٧٦) ﴾ [مريم]

إذن: لا بُدَّ أن تنظر إلى الباقيات فى الأشيـاء ؛ لأنها هى التى يُعوَّل عليها . ويلفتنا الحق سبحانه إلى هذا فى أكثر من موضع من القرآن الكـريم ، فيقول تعالى :

﴿وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى]

ويقول سبحانه :

﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ..﴿٦٠﴾﴾ [القصص]

إذن : فإياك أن تنظر إلى الذاهب ، ولكن انظر إلى الباقى.

وقد قال الحق سبحانه :

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ..﴿١٠٣﴾﴾ [التوبة]

وسبحانه وتعالى هو واهب المال ، وهو يحترم هِبَته لصاحب المال .

وقد لاحظ العلماء أن المال حين يُضاف إلى صاحبه فهو تطمين له ، حتى يتحرك فى الحياة حركة فوق ما يحتاج ، ويبقى له شىء يتموله ، وبذلك يحرص الإنسان على الحركة التى ينتفع بها الغير ، وإنْ لم يقصد .

والله سبحانه وتعالى هو صاحب المال ، وهو يأتى بالمال ، بالأسباب التى جعلها للبشر فى حركة الحياة ، وأمَّنهم على عَرَقهم . وأمَّنهم على ما يملكون ، حتى لا يزهدَ أحدٌ فى الحركة ، فلو أخذ كل واحد من حركته على قَدْر نفسه ، ولم يتملك المال ، لَضنَّ الناس بالحركة .

وإذا ضَنَّ الناس بالحركة فلن يستفيد غير القادرين على الحركة ، فأراد الله سبحانه وتعالى أنْ يجعلَ ما يزيد على حاجات الناس مِلْكاً لهم ؛ لأن النفس تحب أن تتملك .

والتملُّك أمـر غريزىّ فى النفس ، بدليل أن الله سبـحانه هو الذى طلب أن يؤخذ من الأموال . وأوضح أنه يضاعفهـا له ، ومعنى أنه يضاعفها عنده أنه يُتمى فيه غريزة التملك .

وقول الحق سبحانه :

﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم . . ﴿١٠٣﴾﴾ [التوبة]

السطحيـون فى الفهم يقولون : إنهـا تُطهِّر مَنْ تأخـذ منه المال ، وتُزكِّى المال الذى نأخذ منه ، لكن مَنْ يملك عُمْقاً فى الفهم يقول : ما دامت هناك فى هذه الآية عناصـر ، فضـرورىّ أن يعـود التطهيـر والتزكـية عليـها ، وأنها تُـطهّر وتُزكِّى المأخـوذ منه صاحب المـال ، وكذلك تطهـر وتزكى المال المـأخوذ ، وأيضـاً تطهـر وتـزكى المـأخـوذ له وهو الفـقـيـر ، لأن التطـهـيـر مـعناه إزالة قذر، والتزكية نماء .

وهكذا تُطهر الصدقة وتُزكِّى عناصرَ الفعل كلها ، والتطهير لمن يعطى ، له معنى عام ، والزكاة لها معنى معه ، لأنك إنْ أخذتَ منه المال ، فقد يكون قد غفل وأدخل فى ماله شيئاً فيه شبهة ، فالصدقة والزكاة تُطهِّران هذا المال .

أما كيف تنمِّى صاحب المال ؟

أنت إنْ أخـذتَ منه وهو قـادر ، معنى ذلـك أنك تُطمئنـه أنه إذا احتـاج فستعطيه ، وبهذا يعرف أنه لا يعيش فى المجتمع بمفرده ، ولا يخاف أنْ يضيعَ

منه المال ، واطمأن لحظة أنْ أخذتَ منه المـال وهو قادر كى تُعطى المحتاج ، فكأنك تطمئنه وتقول له : أنت لو احتـجت فلن تضيع ، وبذلك تُنمِّى تواجده ، وثِقَـته ، وطُهـرته أيضاً من أن يكون فـى ماله شـبهـة ، هذا من ناحـية صـاحب المـال .

أما من ناحية المال نفسه ، فالصـدقة تُطهِّر المال ، لأن المال قد يزيد فيه شىء فيه شبهة فالزكاة تُطهِّره .

وقد يُخيَّل إليك أنك حين تأخذ من المال فهو ينقص ، عكس الربا الذى يزيد المال ، فالرِّبا مثـلاً يحقق زيادة للمائة جنيه فتصبح مائة وعـشرة مثلاً ، أما المزكَّى فالمائة جنيه تصير سبعة وتسعين ونصفاً .

والسَّطحىّ يـرى أن الزكـاة أنقـصتْ المـال وأن الربا يـزيده ، ولكن هذا بمقاييس البشر ، لا بـمقاييس مَنْ يملك الأشياء ، فالزكاة التى تعتـبرونها نقصاً تُنمِّى ، والربا الذى تعتبرونه يُنمّى إنما يُنقِص .

والحق سبحانه يقول :

﴿يَمْحَقُ(١) اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي(٢) الصَّدَقَاتِ .. ﴿٢٧٦﴾﴾ [البقرة]

وسبحانه يقول :

﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الروم]

(١) المحق: النقصان وذهاب البركة. ومحقه الله: أى ذهب خيره وبركته . (لسان العرب ـ مادة: محق).

(٢) ربا الشىء يربو : زاد ونما . وأربيته : نمَّيته . (لسان العرب ـ مادة : ربا).

وكيف تكون الصدقة تطهيراً للآخذ ، وهو لم يذنب ذنباً يحتاج إلى تطهير ، بل هو مُعطَىً له لأنه محتاج ؟

ونقول : إن الآخذ حين يأخذ من مال غيره ، وهو عاجز عن الكَسْب فهو يتطهَّر من الحقد على ذى النعمة ، لأنه وصله بعضٌ من المال الذى عند ذى النعمة ، فلا يحقد عليه ولا يحسده ، فهو إنْ رأى عنده خيراً دعا له بالزيادة ، لأن بعضاً من الخير يعود عليه .

هذا عن التطهير ، فماذا عن التزكية والنماء ؟

إن الفقير ساعةَ يرى نفسه فقيراً ، ويرى أن المجتمع الإيمانى يقوم برعايته ولا يتركه وحيداً ، ويتسابق أهل الخير لنجدته ، فنفسه تنمو بالاطمئنان ، لأنه فى مجتمع إيمانى .

والزكاة تُنقِّى المجتمع من مفاسد كثيرة ، فهى تمنع الحقد بين الناس ، لأن الفقير إذا وجد مَنْ يعطيه فهو يتمنى له دوام النعمة حتى يستمر العطاء ، فلا يسخط الفقير على الغنىّ .

والغنىّ والفقير متساويان فى الانتفاع ؛ لأن الفقير عندما يأخذ لا يسخط على أنه فقير ، ولكنه يُحِسّ بالعطاء حوله ، والغنى حين يعطى يُحِسّ أن هذا أمان له ، لأنه إنْ ذهبتْ عنه النعمة فسوف يجد مَنْ يعطيه .

وهكذا يحدث توازن فى المجتمع بين الناس ، المجتمع الذى مكَّن الله للمؤمنين فيه ، مِصْداقاً لقوله تعالى :

﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ(١) فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ(٢) وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٤١)﴾ [الحج]

إن المجتمع الذى يجد فيه غير القادر حاجته ، هو مجتمع يملؤه الاطمئنان بالنسبة للقادر وغير القادر ، ونحن نعلم أننا نعيش فى دنيا أغيار، ولا يوجد مَنْ يدوم غِنَاه ، أو مَنْ يدوم فَقْره ، لأن دوامَ الحالِ من المحَال .

إنْ عاش الغنىّ فى مجتمع متكافل يجد فيه الفقير حاجته فهو لن يخشى تقلبات الزمن ؛ لأنه وهو الآن يعطى الفقير ، إنْ أصبح فقيراً فسوف يجد مُقوِّمات حياته ، والفقير إذا أغناه الله تعالى فسيذكر أنه كان يأخذ من الأغنياء ، فيُبادر ليُعين الفقراء كنوعٍ من رَدِّ الجميل .

وبذلك يعيش المجتمع كله حياةً آمنةً ، كما أن الحياة فى مثل هذا

---

(١) مكّن له فى الشىء : جعل له عليه سلطانًا وقدرة .

(٢) قال سيد قطب فى تفسير « الظلال » (٤/ ٢٤٢٧): «« الذين إن مكناهم فى الأرض » فحققنا لهم النصر ، وثبتنا لهم الأمر « أقاموا الصلاة » فعبدوا الله، ووثقوا صلتهم به ، واتجهوا إليه طائعين خاضعين مستسلمين « وآتوا الزكاة » فأدوا حق المال ، وانتصروا على شح النفس ، وتطهروا من الحرص ، وغلبوا وسوسة الشيطان ، وسدوا خلة الجماعة ، وكفلوا الضعاف فيها والمحاويج «وأمروا بالمعروف» فدعوا إلى الخير والصلاح ، ودفعوا إليه الناس « ونهوا عن المنكر » فقاوموا الشر والفساد ، وحققوا بهذا وذاك صفة الأمة المسلمة التى لا تبقى على منكر وهى قادرة على تغييره، ولا تقعد عن معروف وهى قادرة على تحقيقه ».

المجتمع إنما تُهيىء الاطمئنان للناس على أولادهم وذريتهم ، ذلك أن الأعمار بيد الله .

وعندما يُحِسُّ الإنسان بأنه إنْ مات وترك أولاداً صغاراً ضعافاً فسوف يتكفَّل المجتمع بهم ، عندئذ يُحِسُّ بالأمان فى حياته ، ولكن إذا كان المجتمع قاسياً يضيع فيه حَقُّ اليتيم ، فالأب يعيش غَيْرَ مطمئن على أولاده الصغار .

ولهذا نجد أن الحق تبارك وتعالى قد أمر بكفالة اليتيم[1] ، ليعوضه عن أب واحد بآباء متعددين يَرْعَوْنَه ، فيُحِسُّ الأب بالأمان ، وتُحِسّ الأم بالأمان، ويُحِسّ الصغار بالأمان .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا[2] ﴿٩﴾﴾ [النساء]

فتقوى الله تكون ضماناً فى أن يكفل المجتمعُ اليتيمَ ، فيدخل الأمن فى قلب كل أب يخشى أنْ يموتَ وأولاده صغار .

---

(١) وقد قال تعالى لنبيه محمد ﷺ وأمته وهو الذى عاش يتيماً: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ ﴿٩﴾﴾ [الضحى]، بل إن الله اعتبر من يَدع اليتيم أى يدفعه ويقهره ، اعتبره مكذباً بالدين ، فقال: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ﴿١﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾﴾ [الماعون].

(٢) السداد : الصواب وموافقة الحق والعدل والشرع لا خطأ فيه .

إذن : فالاقتصاد الإسلامى مَبْنىّ على وجود حركة فى الكون ، ولابد أن تكون هذه الحركة على قَدْر طاقة المتحركين ، وليس على قدر حاجاتهم ، حتى يكون هناك فائض يأخذه غير القادر من المتحرك القادر .

والله سبحانه يريد أنْ تُوجد الحركة فى الكون ؛ لأنه إنْ وُجِدَت الحركة فى الكون انتفعَ الناس ، وإنْ لم يقصد التحرُّك ، وبعد ذلك فأيْن يذهب الذى يأخذه الله منك؟

إنه يعطيه لأخ لك ولغيره ، فما دام سبحانه يعطى أخاً لك وزميلاً لك من ثمرة ونتيجة حركتك ، ففى هذا اطمئنانٌ وأمانٌ لك ، لأن الغير سيعطيك لو صِرْت عاجزاً غير قادر على الكسب ، وفى هذا اطمئنان لأغيار الله فيه .

فإن جاءت لك الأغيار فستجد أناساً يساعدونك ، وبذلك يتكاتف المجتمع ، وهذا هو التأمين الاجتماعى فى أَرْقى معانيه.

أليس التأمين أن تُعطِى وأنت وَاجِد ، وأنْ تأخذَ وأنت فَاقِد؟ إذن: فهذا كُلُّه من فَضْل الله .

وقَوْل رَبِّ العِزَّة سبحانه فى الحديث القدسى: «إنَّا أنزلنا» .

فساعة نسمع قوله «أنزلنا» نرى أن هناك مكانة عَلِية يَنْزِل منها شىء لمكانة أَدْنى ، ومثل ذلك أمر معروف فى الحِسّيات ، وهو معروف أيضاً فى المعنويات.

وقد يكون هذا الشيء غير موجود فى السماء لينزل ، ولكنه فى الأرض ومع ذلك يقول فيه الحق سبحانه :

﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. (٢٥)﴾ [الحديد]

وهو إنزال ؛ لأنه أمر من تدبير السماء ، حتى وإن كان فى الأرض.

والحق سبحانه لم يَقُلْ «أنزلنا» على الذهب أو الماس أو الفضة ، أو أىّ معدن من المعادن النفيسة ، ولكنه خَصَّ الحديد بهذه الصفة ، لأن الحديد أداةٌ من أدوات نَصْر الدعوة إلى الله تعالى .

فالإنزال معناه إرادةُ الكون ، وإرادةُ الكون فى كل كائن تكون من السماء ، ولذلك فالشيءُ الذى لا ينزل من السماء ربُّنا قال عنه: إنه ينزل من السماء .

❑❑❑